

بسم الله الرحمن الرحيم

صدى القضايا العربية في كتابات أبي القاسم سعد الله

د. مصطفى عبيد قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

مقدمة

كان الدافع لإثارة موضوع صدى القضايا العربية في كتابات أبي القاسم سعد الله هو الرغبة في اظهار بعض محاولات الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله في جمع التاريخ العربي والإسلامي من مظانه المختلفة، فقد طاف كثيرا من مكاتب العالم وأرشفاته بحثا عن معلومة. ولذا نجد يقول عن ما كتبه عن اليقظة العربية في الحجاز: "ومن جانبنا رأينا أن نشر هذه النصوص يثري التاريخ العربي الحديث، وقد يكشف عن بعض الجوانب الخفية منه".

وقد حاولنا في ورقتنا هذه التطرق إلى تو ضيح الصدى الذي أحدثته بعض القضايا العربية وكان لها رَجْعٌ واضح في كتابات الدكتور أبي القاسم سعد الله . وقد اخترنا بعض القضايا لا كل القضايا . مثل اختيار بعض الصدى فيما كتب عن الحجاز ، أو صدى بعض الرحلات التي قام بها وتسجيل ملاحظاته وأرائه فيها، دون أن ننسى صدى أحداث تاريخية كبرى عاشها أبو القاسم سعد الله بكل جوارحه شابا وكهلا وشيخا . ومنها: العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956، والحروب العربية - الإسرائيلية 1967، 1973. هذا دون أن ننسى ملاحظاته التي سجلها عن البلاد العربية في رحلاته المختلفة، والتي كان أملنا كبيرا في رصدها جميعا لكن المقام لا يتسع لذلك فاقصرنا على اختيار أنموذج واحد هو الرحلة المغربية . والإشكالية التي حاولنا التطرق إليها في ذلك كله هي : نظرة أبي القاسم سعد الله إلى التاريخ العربي من خلال النماذج المختارة. وما الصدى الذي أحدثته في نفسه؟

1 - لمحة عن تحول أبي القاسم سعد الله من الأدب إلى ميدان التاريخ:

شغف الدكتور أبو القاسم سعد الله بالتاريخ بعد شغفه بالأدب، وقد بدأ تأثره بالتاريخ يوم بدأ النضال من أجل التعريف بالقضية الجزائرية بين طلبة وشعوب العالم مذ كان في تونس وواصل ذلك إلى غاية استقلال الجزائر. كما واصل في الجمع بين الأدب والتاريخ رغم تخصصه في التاريخ أثناء الدراسة بالولايات المتحدة الأمريكية . وقد كان الدكتور سعد الله محبا للاطلاع على تاريخ الجزائر خصوصا

وتاريخ العالمين العربي والإسلامي عموما وتاريخ البشرية بصفة أعمّ . ولذا خلّف لنا رصيذا معتبرا من المعلومات التاريخية المحللة أحيانا والحام أحيانا أخرى . ولذلك كان يكتب في يومياته عن التاريخ العربي: "... لم أتصل بريد لا من الأهل ولا من الأخ علي بالقاهرة ولا من الأصدقاء، لذلك أحس بقلق وتشوق إلى الأخبار وعلى الخصوص الأخبار العربية".

تناول أبو القاسم سعد الله كثيرا من قضايا تاريخ البلدان العربية وأسهم إلى حد بعيد في توفير مادة إخبارية هامة جدا جمعها من مظانها المختلفة سواء من خلال اطلاعه على أدبيات الحركات الوطنية في البلاد العربية او من خلال اطلاعه على الأرشيفات عبر العالم خاصة وهو المكوك الطائر في البحث عن الوثائق وجمعها وخاصة باللغات الثلاثة العربية والفرنسية والإنجليزية . وقد ساعده في ذلك عوامل متعددة أهمها:

1 - اتقانه للغة الإنجليزية: والتي ساعدته على الاطلاع على غير ما كتبه الفرنسيون الذين طالما ارتبط بهم تاريخ الجزائر عبر العصور . ومنه استمد قوة ر دود عن المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية. وساهم في تصويب الكثير من الدراسات من خلال محاولته تتبع الحقيقة التاريخية بعيدا عن المزايدات الاستعمارية تحت دعاية التمدن ونشر الحضارة او ما صار يعرف بتمجيد الاستعمار ...

2 - استفادته من منحة فولبرايت للبحث من طرف وزارة التعليم العالي عن طريق جامعة الجزائر من أجل استكمال أبحاثه لاسيما خلال انجاز موسوعته الضخمة الموسومة بعنوان (تاريخ الجزائر الثقافي). والتي قلما رأينا مثالا لها في مؤلفات الباحثين ونحن نعلم صعوبة جمع تاريخ الجزائر في الفترة الممتدة بين 1500 و 1962 التي جعلها الدكتور سعد الله محتوى لموسوعته، قبل ان يضيف إليها جزئين اثنين أتى فيهما على أهم محطات ومظاهر ومميزات تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي وإلى غاية دخول العثمانيين . وبالتالي صارت موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي تضم اثني عشرة مجلدا.

3 - إقامته بالولايات المتحدة الأمريكية : ردحا من الزمن سواء كباحث متفرغ من جامعة الجزائر أو كباحث متنقل عبر مكتباتها لاسيما خلال عطلة الصيفية التي كثيرا ما كن يضحى بها من أجل البحث.

4 - إقامته بالأردن قرابة العشر سنين تمكن فيها من اعداد بحوث عميقة وهامة اشتملت على كثير من تاريخ العرب ووثائقه مما سيزيد الباحثين لا محالة مادة علمية خام احيانا ومدروسة محللة احيانا أخرى. تجسدت على الخصوص في كتابه (بحوث في التاريخ العربي الإسلامي) الذي قال عنه: "هذه بحوث في التاريخ العربي الإسلامي كتبها خلال العشر سنوات الماضية (كتب ذلك سنة 2002)، أثراء ممارستي للتدريس والبحث خارج الجزائر".

5 - استفادته من مكتب بحث وضع تحت تصرفه من طرف مدير المركز الوطني للدراسات والحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 الدكتور جمال يحياوي . ووضعت تحت تصرفه مكتبة المركز وكثيرا من العوامل المساعدة لباحث متخصص كفؤ مثله . والذي قال عنه الدكتور سعد الله: "... وأما الدكتور جمال يحياوي، مدير المركز الوطني لتاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، فقد دعم مسيرتي في البحث بتوفيره وسائل الإنجاز وكرمه العلمي إلى أن أصبح الكتاب ماثلا للقراء".

2- نماذج من القضايا العربية وصدائها في كتابات سعد الله:

ومن القضايا العربية التي كان صدائها عميقا، وتفاعل الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله تعالى، نذكر على سبيل المثال لا على سبيل الإمام بها مايلي:

1 - صدى أزمة قناة السويس أكتوبر 1956:

يذكر أبو القاسم سعد الله عن أزمة قناة السويس أن الجريدة المصرية "الجمهورية" والتي كان سعد الله يداوم على قراءتها ويتتبع من خلالها الأحداث الدولية لاسيما احداث الثورة الجزائرية، قد كتبت عن حادثة السفينة "أتوس" أن "فرنسا تتهم مصر بتسليح الجزائر وتعتب على مراکش لأنها تدرب الجزائريين

في أرضها. وقالت السلطات الفرنسية إن هذه السفينة قد شحنت من قبل إلى الجزائر أربع مرات وإن حمولتها هذه المرة تكفي لتسليح 5 آلاف جزائري". وهو الشيء الذي ترتب عنه استنكار مصر للاقتحام وتقديم شكوى ضد السلطات الفرنسية . قبل أن تتحرك إسرائيل في عملية وصفها سعد الله حينها بالمفاجئة بالهجوم على مصر، فقال سعد الله : "هذا وقد حدث حادث مهم لفت الأنظار عن الجزائر فجأة، فقد هجمت إسرائيل على مصر من صحراء سيناء وما يزال القتال مستمرا حتى الليل ". بما في ذلك الغارات الإسرائيلية وردود الدفاعات المصرية التي تمكنت حسب الإذاعة المصرية من إسقاط 10 طائرات إسرائيلية وعدد من المصفحات وعربات الجيش الإسرائيلي . وهو الأمر الذي جعل وزير التعليم العالي بمصر يعلن عن توقيف الدراسة إلى أجل غير مسمى. ولذلك علاقة مباشرة بوجود أبو القاسم سعد الله بمصر ولكن الحرب لم تطل وعادت الأمور إلى مجاريها . وقد أدت تطورات الأحداث والواقع الدولي العام لاسيما الثورة الجزائرية وتأثيراتها البليغة على فرنسا وكذلك تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس أدى إلى دخول كل من فرنسا وبريطانيا الحرب على مصر بتاريخ 31 أكتوبر 1956 على الساعة السابعة مساء. مما أدى بالتحاق كثير من الطلبة الجزائريين ومنهم أبو القاسم سعد الله متطوعين بمعسكرات التدريب. "فتطوع سعد الله وشارك في التدريب على السلاح والدفاع عن مصر إثر العدوان الثلاثي عليها في 30 أكتوبر 1965 م، وأعطى رقمه الهاتفي لمجموعة من الطلبة كانوا يسعون إلى تنظيم فرقة جزائرية في جيش التحرير المصري . ثم وازب على حضور التدريبات العسكرية بنادي المعلمين بالقاهرة، وتدريب على الجري والرمي بالرصاص".

2 - صدى حرب 1967:

يرى الدكتور أبو القاسم سعد الله أن حقيقة الأزمة الدولية التي سمتها الدول الغربية الاستعمارية بمصطلح "الأزمة" هي في الحقيقة تغطية عن القضية الحقيقية وأصل الصراع بين العرب والمسلمين وبين الغرب من جهة أخرى ألا وهي القضية الفلسطينية . وقد عبر عن ذلك بوضوح يعكس موقفه من تلك الأزمة فقال: "يعيش الشرق الأوسط في أزمة كما تقول الأخبار نتيجة طلب مصر لسحب قوة الطوارئ الدولية. إني أحاول أن أقنع أصدقائي هنا بأنه لا أزمة وأن هناك قضية فلسطين التي يجب ان تحل بين العرب والصهاينة بالحرب . وليس على الدول الكبرى أن تتدخل لحماية إسرائيل . إن ما يسمى بالأزمة

الدولية هو مؤامرة صهيونية لكسب عطف الرأي العام ولجعل قضية فلسطين دولية ". وقد تمنى سعد الله لو أن العرب يتفقوا على وضع أم ريكا بين خيارين لا ثالث لهما وهما : عدم مساندتها لدولة بين إسرائيل أو ضياع مصالحها مع العرب ضياعا نهائيا . وذلك لأن الدول الغربية لا تزال آنذاك (والآن أيضا) على عقليتها الاستعمارية ومنها الولايات المتحدة الأمريكية وكانت تلك الدول تفكر جديا في نصره دولة بني إسرائيل. وقد كتب سعد الله في تلك الأزمة رسالتين الأولى إلى الرئيس الأمريكي جونسون يلتمس منه فيها عدم التدخل لحماية الكيان الصهيوني، والثانية إلى سفير الجمهورية العربية المتحدة "أعرض فيها تطوعي وأبارك فيها موقف مصر . وحدة العرب الآن إزاء هذه القضية جعلت كل ال دول تتراجع". وواضح جدا وجلي أن أبا القاسم سعد الله كان ينوي التطوع في الجهاد ضد أثناء الحرب العربية الإسرائيلية سنة 1967.

والمتتبع لكتابات سعد الله عن حرب 67، يتبين بوضوح صدمته بهزيمة العرب وتواطؤ مجلس الأمن في التصويت على وقف اطلاق النار إلى غاية التفوق لإسرائيلي، كما يتبين أيضا نغمته على عدم استعداد الرئيس المصري عبد الناصر فهو يشير إلى عواطفه تجاه الحرب تارة بالحرقة، وتارة بالدهشة، وتارة باتهام جمال عبد الناس والجمهورية العربية المتحدة بإعلانه حربا لم يكن مستعدا لها، وتارة يصفه بأنه بعيد كل البعد عن ديغول وتشرشل ... عبارات تجعل القارئ يقرأ عاطفة سعد الله وكأنه يجالسه حينها.

3 - صدى حرب 1973:

تختلف أصداء حرب 1967 عن حرب 1973 في نفسية سعد الله، بسبب اختلاف الظروف الدولية وظروفه الخاصة. وإذا كان اختلاف الظروف الدولية مفهوم لدى الباحثين فعلينا أن نشير إلى الاختلاف الحاصل في ظروفه الداخلية. ففي حرب 67 كان سعد الله يعيش آخر أيامه بالولايات المتحدة قبل عودته إلى العمل بالجزائر. فقد انتهت الحرب يوم 10 جوان أي يوم واحد بعد سفر سعد الله إلى لندن باتجاه فرنسا ومنها إلى الجزائر التي دخلها مساء يوم 07 أكتوبر من السنة نفسها، بعد فترة قضاها بباريس . أما حرب 73 فقد كان سعد الله بالجزائر، كما انه لم يسجل يومياته أياما قبل اندلاع الحرب وبالتالي لم نجد

لصدى أسبابها أثرا في يوميات سعد الله . فهو قد انقطع عن تدوين يومياته بين 10 سبتمبر و 08 أكتوبر 1973 وإن كان سعد الله لم يذكر سبب الانقطاع فإن الظاهر أنه كان بسبب مشاركته في اللجنة الفنية للمؤتمر الرابع لحركة عدم الانحياز الذي انعقد في الجزائر متوليا مهمة مراجعة الترجمة من الإنجليزية إلى العربية . أي استأنف التدوين ابتداء من اليوم الثالث للحرب . ثم انقطع عن التدوين من جديد عشرة أيام كاملة (إلى غاية يوم 18 أكتوبر) ربما كانت بسبب الإرهاق والتعب الذي شعر به في عينه بسبب الترجمة، وكذلك بسبب الزيارات العائلية والمجاملاتية التي تزامنت مع أحداث الحرب، فأمه انتقلت إلى العاصمة في تلك الفترة مقيمة عند أخته، إضافة إلى زيارة صهره سي عمر بن سلامة مع أسرته . أما زيارة المجاملة فقد أداها له أستاذ الجغرافيا بالجزائر السوري الأصل الدكتور عمر باشا . أو ربما بسبب الحمل الذي كانت به زوجته أم أحمد، كل ذلك يمكن إضافته إلى أجواء رمضان، الذي قال عنه سعد الله: "رمضان معنا الآن . لا أحس بالجوع معه، لكن أحتاج إلى بعض القهوة" . وقد يكون كل ذلك مجتمعا هو السبب في توقف سعد الله عن تدوين يومياته في تلك الأيام .

ولكن مع ذلك نجد صدى الحرب واضحا في يومية 26 أكتوبر 1973، وهي اليومية الأولى بعد استئناف سعد الله التدوين بعد الحرب العربية الإسرائيلية التي دامت عشرين ي وما (05 - 21 أكتوبر 1973) والتي تزامنت مع شهر رمضان الفضيل . فقد كتب عنها مايلي: "توقفت الحرب في المشرق العربي منذ خمسة أيام، ولم ندر لماذا توقفت ! فلا الاتصالات بين المصريين والروس معلنة ولا حكوماتنا عبرت عن شيء . وهكذا فنحن في غموض وظلام مما يجري في المشرق العربي . وكل المواطنين يتكهنون حسبما يقرؤون من جرائد أجنبية أو يسمعون إذاعات . ومهما كان الأمر فإن وقف القتال ليس في صالح العرب، وربما يكون المشرق العربي يدخل الآن مرحلة معقدة أكثر من السابق في العلاقات الدولية، وقد يفرض على العرب الاعتراف بإسرائيل . إن الشعب في البلاد العربية -بما فيها الجزائر- غير موجود فلا أحد من الحكام طلب إذنه في الحرب أو السلام، مع أن المعركة يسمونها مصيرية" .

هذا، وإن لسعد الله تقيمه لانعكاسات حرب 73 على الجزائر، فقد اعتبر ترأس الجزائر لحركة عدم الانحياز مؤثرا على بناء الدولة الجزائرية ومكلفا لها، وقد تدفع ثمنه غالبا في تلك الفترة بسبب تزامنها مع اندلاع الحرب وهو من سوء حظ الجزائر آنذاك، كما قد تتأثر موازين سياستها الداخلية والخارجية

وسلم الأولويات في ذلك . وقد اعتبر سعد الله خروج يومدين من الاهتمام بالسياسة الداخلية للبلاد إلى الاهتمام بالسياسة الخارجية قد يكون مكلفا للجزائر وقد يكون مكلفا ليومدين شخصيا . أو كما قال: "...غير ان هذه السياسة قد تكون على حساب البلد، بل قد تكون على حسابه (يقصد هواري يومدين)".

3- من تاريخ الدول العربية في كتابات أبي القاسم سعد الله:

1- من تاريخ اليمن:

من الدول العربية التي تناول الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله تاريخها بالعرض والدراسة نجد دولة اليمن التي قال سعد الله بأن لها علاقات قديمة ببلاد المغرب العربي حيث قال : "فالحضور اليمني في بلاد المغرب العربي حضور دائم في نطاق البحث والتاريخ، ويكفي أن ابن خلدون كان نتاج هذا الحضور". كما اعتبر سعد الله أن سيل العرم وانهار سد مأرب قد ساهم مساهمة كبيرة في انتشار اللغة العربية قبل الإسلام من خلال انتشار العنصر العربي خارج اليمن وخارج منطقتهم، شبه الجزيرة العربية. وربط سعد الله بين اليمن وبين الرواية التاريخية وشمال إفريقيا، معتبرا أن أصول سكان شمال إفريقيا الأمازيغ تعود إلى اليمن فقال عنهم : " ماهم إلا يمنيون حَمِيرِيُّونَ أو من العرب العاربة " . ومن أجل التعمق في دراسة أصول السكان بشمال إفريقيا والاقتراب من الوصول إلى الحقيقة فيما اختلفت فيه الروايات التاريخية حول نسب وأصول سكان المنطقة، قال سعد الله: "وأذكر أنني عندما زرت اليمن سنة 1987، اتفقت مع د. عبد العزيز المقالح على عقد ندوة يمنية مغاربية لتدارس الهجرات وأسبابها وتأثيرها اللغوي والبشري وتبادلنا بعض المراسلات ثم وقعت احداث جعلت فكرة الندوة تتأجل على حد علمي".

واعتبر سعد الله أن أول علاقة له باليمن كانت من خلال قراءة كتاب نيل الأوطار للإمام الشوكاني وذلك حين نصحه خاله الشيخ حفناوي هالي والذي كان من رجال الحركة الإصلاحية بالجزائر عموما وبقمار ووادي سوف خصوصا . أما الاتصال الثاني له باليمن فقد كان من خلال ا لطلبة اليمنيين الذين درّسهم بالجزائر والذين قال عنهم انه يكن لهم كل التقدير والاحترام . قبل ان يكون اتصاله بأرض اليمن إثر الملتقى الدولي سنة 1987.

وإضافة إلى كثير من التفاصيل التي سجلها أبو القاسم سعد الله عن اليمن، والتي ليس هذا مجال ذكرها. كما أنه يمكن للباحث أن يطلع عليها في مظاهرها من كتب سعد الله . إلا أنه يمكننا أن نذكر ما جاء به سعد الله في النقطتين التاليتين:

1 - اتصال الجزائريين باليمن

2 - دور الشيخ فضيل الورتيلاني في الثورة اليمنية

فمن النقطة الأولى، يذكر سعد الله، بالاعتماد على رحلة ماء الموائد للعايشي، أن أول اتصال للجزائريين باليمن كان من خلال زيارة الحاج محمد بن اسماعيل الجزائري إلى المشرق والاستقرار باليمن. وفي ذلك يقول: "فقد روى (أي العياشي ق 17 م) أن الحاج محمد بن إسماعيل الجزائري رحل إلى المشرق وأخذ العلم واقتنى الكتب وزار عواصم عربية وإسلامية، منها اليمن بحثا عن الكتب وطلب العلم". وبعد الحاج محمد بن إسماعيل في القرن السابع عشر، زار جزائريان آخران اليمن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إثر الهزيمة التي لحقت بالمقرانيين والشيخ الحداد إثر ثورتهم سنة 1871. نفي الشيخ محمد بن علي (وعلي) إلى جزيرة كايان كما هو معروف تاريخيا عن نفي المقرانيين ومجاهدي ثورته إلى كايان وكاليدونيا الجديدة . وبعد سنوات من النفي سمح الفرنسيون للشيخ وعلي بالاقامة في بلد يختاره من غير الجزائر، فاختار اليمن التي بقي فيها ردحا من الزمن قبل ان ينتقل إلى الاستقرار بالمدينة المنورة. وإذا كان سبب اختياره المدجينة المنورة واضح وهو الحج ومجاورة قبر الرسول (ص) فإننا لا نعلم حاليا سبب اختياره اليمن، سوى، ربما، أنها من بين أقرب المناطق البحرية العربية الإسلامية إلى منفاه خاصة وأنا نعلم أنه جاء إليها على ظهر سفينة .

وإضافة إلى الشيخ وعلي المنتمي إلى الطريقة الرحمانية والثائر رفقة المقراني، زار اليمن واستقر بها احد أفراد عائلة الشيخ الأمير عبد القادر وهو الشيخ محمد المنور بن محمد المبارك . والذي يقول عنه سعد الله: "فقد هاجرت عائلة المبارك المشهورة اليوم في سوريا من مدينة دلس الجزائرية الساحلية على إثر هجرة الأمير عبد القادر الجزائري إلى الشام مع أنصاره . ولكن أحد أبناء هذه الأسرة اختار الهجرة إلى اليمن (وهو محمد المنور) حيث له فيها أبناء وأحفاد، كما سجل ذلك كتاب (علماء دمشق وأعيانها)

محمد مطيع الحافظ ونزار أباطة (دمشق 1991م) ولكننا لا ندرى اليوم أي شيء عن عقب الشيخ محمد المنور".

هذا ويضيف أبو القاسم سعد الله شخصية تاريخية أخرى جديدة بالبحث والدراسة وهي مجهولة اليوم -حسب اعتقادنا- ألا وهي شخصية السيد سليم السمعوني وهو ضابط جزائري بالجيش العثماني ينحدر من أسرة الشيخ طار الجزائري المعروف بنشاطه الإصلاحية في بلاد الشام . إذ يفيد سعد الله أن سليم السمعوني هذا هو ابن اخ الشيخ طاهر. أرسله العثمانيون إلى اليمن مطلع القرن العشرين. وقد كان ذا اتجاه قومي معادي للطورانية كما هو معروف تاريخيا في صراع القومية العربية مع الطورانية . وقد انتهى به المصير إلى الإعدام من طرف جمال باشا في ماي 1916. أي قبيل شهر واحد من اندلاع الثورة العربية ضد الحكم العثماني في شبه الجزيرة العربية.

أما عن النقطة الثانية المتعلقة بدور الشيخ فضيل الورتيلاني في اليمن خلال إقامته بها سنتي 1847 - 1948، فيذكر أبو القاسم سعد الله أن تأثيره في الحركة الثورية اليمنية كان كبيرا وهي الحركة التي انتهت بالثورة على الامام يحيى حميد الدين الذي اغتيل سنة 1948. ويرى سعد الله أن الشيخ الورتيلاني أصبح على علاقات وطيدة برجال الإصلاح في اليمن و"ربط اتصالاته مع النخبة اليمنية التي كانت تطمح إلى التغيير العنيف. وبعد ذلك غادر اليمن متهما بالتآمر والمشاركة في اغتيال الإمام. وبقي شهورا لاجئا على ظهر سفينة في البحر دون أن تقبله أي دولة عربية أو إسلامية". وفتح قوسا توضيحية هنا هو في الأصل أحد الهوامش الأساسية في مداخلتنا، ذكرنا فيه : " ويرى أحمد بن محمد الشامي ان الشيخ فضيل الورتيلاني هو المحرك الأساسي لما جرى في اليمن من أحداث خلال تلك الفترة من تاريخها فقال:" وفي اعتقادي ان العالم المجاهد الجزائري السيد الفضيل الورتيلاني هو الذي غير مجرى تاريخ اليمن في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، وانه حين وضع قدمه على أرض اليمن كأنما وضعها على زر "دولاب" تاريخها، فدار بها دورة جديدة في اتجاه جديد؛ لأن ثورة الدستور سنة 1367 هـ / 1948 م هي من صنع الورتيلاني ". هذا وقد أعطى أحمد بن محمد الشامي حيزا معتبرا في خمسة عشر صفحة بين 194 و 208 تناول فيها المدة الزمنية التي قضاه الورتيلاني باليمن وزياراته وجولاته فيها وخطبه ولقاءاته بالعلماء والوجهاء ونقد الواقع اليمني ... كل ذلك صاغه في ظل ظروف اليمن التي

كانت متطابقة ما كان يصفه الورتيلاني. وقد جاء كتاب الشامى هذا في 548 صفحة. ويرى الشامى أن خمائر الثورة باليمن ضد الإمام العجوز يحيى (حوالي 80 سنة) كانت موجودة ولكن كانت تنقصها القيادة والتوجيه. "... والزعامات العلمية والدينية والسياسية قد خدّرها الوهن، وجمّدتها الأطماع . والتحفزات الوطنية ليس لها زعماء أكفاء ذوو مؤهلات قيادية .. فلما جاء السيد الفضيل الورتيلاني، عمل ما لم يعمله أحد من اليمنيين، فوحد شتات المعارضة في الداخل والخارج . وأرشد المطالبين بالإصلاح والمناشدين بالتغيير والتطوير إلى طرق العمل، وجمعهم في رابطة وطنية، وقارب بينهم وريين أرباب الطموحات السياسية، والزعامات العلمية والدينية والقبلية والتحفزات الإصلاحية، من الناقدين والمتبرّمين، وصهر مجهوداتهم وأهدافهم، واتجاهاتهم وآمالهم وأمانيتهم في بوتقة "الميثاق الوطني المقدس". وتبدو قيمة أو خطورة ما أقدم عليه الورتيلاني في جرأته التي لم تضاهيها جرأة يمنية أخرى ، حيث كتب الشامى متحدياً أبناء اليمن من ذوي المكانة والجاه والسلطان بقوله: "لا أريد ان أناقشهم وأؤكد جازماً بأن أحداً من هؤلاء المناضلين الأعلام -لو فرضنا أنه كان يستطيع- لم يحاول، بل ولا فكر في أن يحاول، بأن يجمع شتات تلك القوى الوطنية، ويوحدها في جبهة متحدة لها ميثاق وطني مقدس قبل أن يصل إلى اليمن السيد الفضيل الورتيلاني! هذه هي الحقيقة؟". ومعروف أن هذه الثورة قد انتهت بالفشل . وكان الشيخ الورتيلاني قد غادر اليمن أياماً قليلة قبل فشلها . ويرى سعد الله أن حقيقة مشاركة الورتيلاني في التآمر على الإمام والمشاركة في اغتياله أمر لا يزال يخضع للدراسة والتحقق . ذلك ان مذكرات أحمد الشامى تشير إلى ذلك بوضوح . فيما ينفي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عن الورتيلاني تلك التهم في مقالاته التي نشرها آنذاك بالبصائر. ويميل سعد الله إلى ترجيح رأي الشامى باعتباره كان معاصراً وشاهد عيان عن الحركة ونشاط الورتيلاني فيها . ويستبعد رأي الإبراهيمي بحكم الظروف التي كان يمر بها الورتيلاني في عرض البحر

ولم يكتف أبو القاسم سعد الله بهذا، وإنما استفاد أيضاً من رحلة عبد العزيز الثعالبي إلى اليمن والتي لعب فيها الثعالبي دور الوسيط بين السلطات اليمينية وبين سلطة آل سعود، حيث قال سعد الله: "...وخلال ذلك التقى (الورتيلاني) بالإمام يحيى عدة مرات في نطاق المساعي الحميدة بينه وبين عبد

العزیز آل سعود، وقد جرت المراسلات بین الطرفين، فی محاولة عقد مؤتمر یمنی عام وتبادل الرسائل مع عدد من الأعیان حول الیمن".

2- من تاریخ أرض الحجاز:

تناول الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله تاریخ أرض الحجاز فی مجموعة من البحوث والدراسات منها: نصوص تاریخیة عن الیقظة العربیة فی الحجاز 1916 - 1922 من خلال مجلة العالم الإسلامی (Revue du Monde Musulman)، وكذلك بحث: الأمير عبد القادر الحفید والثورة العربیة. و أيضا: رحلة لیون روش إلى الحجاز 1841 - 1842، ورحلة كورتلumon إلى مكة سنة 1894. إضافة إلى إشارات أخرى هنا وهناك فی كتاباته عن الواقع العربی خلال الفترتین الحدیثة والمعاصرة، أو عن زيارته ورحلاته ونشاطاته العلمیة ...

والقارئ للبحوث التي اختار سعد الله محتواها ومضامينها من تاریخ الحجاز یلاحظ أنه عمل وسعه لتوفير مادة علمیة للباحثین أو نبه إلى أماكن تواجدها. ففي بحثه المعنون "ب" نصوص تاریخیة عن الیقظة العربیة فی الحجاز كما نشرتها مجلة العالم الإسلامی الفرنسیة (R.M.M) 1916 - 1922 (تقديم وترجمة). وقد برر اختياره لهذا العمل لأنه "یثري التاریخ العربی الحدیث".

جمع أبو القاسم سعد الله من هذه المجلة المهتمة بشؤون العالمین العربی والإسلامی وفق نظرة استشرافیة، عشرة نصوص. تناولت قضايا متنوعة كما صدرت عن جهات مختلفة ولكنها تصب كل ها فی خانة واحدة وهي معالجة أوضاع الحجاز أيام الثورة العربیة. فقد ابتدأها سعد الله (وقبله المجلة) بدوافع الثورة كما أعلنها الشریف حسین بن علی شریف مكة. ولكن سعد الله یعتبرها أسبابا لا تعبر عن الحقیقة. وذلك فی قوله: "ولكننا نلاحظ أن الأسباب الرسمىة والدوافع الخارجیة للثورة تبدو أقل اهمیة. والنشور المذكور یعطي مع مناشیر الشریف الأخری التي أعلنها خلال الحرب (العالمیة الأولى) والتي ستنتشر بعد ذلك، مادة خاما لتاریخ هذه الحركة، وهو تاریخ لا یمكن ان یكتب إلا بعد مرور الوقت، أي عندما تصبح وثائق (أرشیفات) الحلفاء السابقین للملك (الشریف) الحالی للحجاز أو وثائق (أرشیفات) مكة مفتوحة أمام الأبحاث التاریخیة. وعندئذ فقط یمكن تقديم صورة كاملة عما حدث، وهكذا إذن یمكن إنصاف هذه الشخصیة المهمة لزعمیم الحركة العربیة، وهو الملك حسین".

أما عن المنشور الذي وجهه سكان المدن الكبرى للحجاز احتجاجا على اندلاع الثورة العربية، فهو منشور ولو ابتعد عن اللغة الأدبية القوية، لكنه في - نظر سعد الله دوما- عبر بصدق عن عاطفة وشعور السكان تجاه القوى غير الإسلامية متمثلا في امتعاض هؤلاء السكان من بريطانيا.

ومن اهتمام سعد الله بتاريخ الحجاز نذكر ترجمته لكتاب الضابط الفرنسي إدوارد بريمون (ED. BREMOND) سنة 1916 رئيس البعثة الفرنسية إلى حسين بن علي شريف مكة . وقد قال سعد الله عن عمله هذا: " إن عرضنا لهذا الكتاب ليس تعريفا به بالمعنى التقليدي ... كما انه ليس ترجمة بالمعنى التقليدي ... وكان دافعنا من عرض الكتاب على هذا النحو هو اطلاع الباحثين العرب في تاريخ الحجاز أثناء الحرب العالمية الأولى على وجهة النظر الفرنسية في الأحداث التي جرت فيه، وهي أحداث كبيرة تتعلق بمصير العرب والمسلمين ". وقد حكم سعد الله على بريمون بأنه -ورغم خبرته بالقضايا العربية- إلا انه ظل منحازا في كتابه ضد العرب بما ينم عن انه لم يتخلص من عقدة التفوق الاستعماري.

أما في مقاله "الأمير عبد القادر الحفيد والثورة العربية، فحاول الأستاذ أبو القاسم سعد الله أن يعطي فكرة تاريخية عن أحد النشطاء القوميين الجزائريين الذي لم تتناوله الأ قلام كثيرا وعن مدى مساهمته في الثورة العربية التي هي ثورة قومية كما هو معلوم . والتي كان له فيها دور كبير انتهى بتوليته عملية حفظ الأمن في دمشق رفقة أخيه سعيد . ورغم اختلاف الرواية بين من حمل العلم العربي سعيد أم عبد القادر الحفيد إلا ان كلاهما كان فاتحة عهد جديد بنهاية العثمانيين في دمشق وبداية حكومة جديدة تعلن ولاءها للشريف حسين . ويقول سعد الله في ذلك: " ... يقول لورنس رفع عبد القادر العلم العربي قبل الغروب (أي يوم قبل دخول لورنس ومن معه دمشق) وحياه آخر قائد تركي . وأن رفع العلم (العربي) "كان خاتمة للعصر الماضي الملوث و فاتحة عهد جديد مشرق منير" .

4 - البلاد العربية من خلال رحلات أبي القاسم سعد الله: (الرحلة المغربية أمموذجا):

تميز أبو القاسم سعد الله بدقة الملاحظة وعمقها ولذا تجده يسجل أدق التفاصيل عن الرحلة، حتى أنه ليسجل منها ما يراه البعض سطحي او غير مفيد، لكنه كان يراه مفيدا ولو لأجيال قادمة غير جيلنا وذلك ما كان يؤمن به وينصحنا كطلبة عنده بضرورة تدوين كل شيء يمر بنا أو يمر معنا لأن ذلك

سيصبح تاريخا في المستقبل . وقد ساعده في ذلك سعة اطلاعاته ومعطياته التاريخية والأدبية السابقة التي تجعله يستدعي الماضي لكتابة الحاضر، فيرى الاحداث على غير ما يراه الكثير ويتعمق في الغوص فيها عمق ثقافته وعمق قراءاته المختلفة والمتعددة اللغات والثقافات والمجالات العلمية . ولذا نجد يصف رحلته إلى شبه الجزيرة العربية التي قام بها في زيارته إلى الرياض في أبريل من سنة 1977 بالقول: "وقد سجلت، كعادتي في كل بلد أزوره، يوميات وانطباعات ومشاهدات، تغطي جميع مظاهر الحياة التي يصل إليها انتباهي وفضولي العلمي . ولعلي لم أسجل من ذلك على بلد كما سجلت على رحلتي إلى الجزيرة العربية. ويعود ذلك لأهمية الحادث في حياتي من جهة ولأهمية الجزيرة العربية في تليخ العرب والمسلمين من جهة أخرى. وقد تجمع لدي من ذلك كراسة لو نقحت وطبعت لجاءت في مجلد وسط".

لم يكتب أبو القاسم سعد الله بالتأريخ فقط للبلاد العربية من خلال كتابات السابقين، وإنما سجل تاريخها وانطباعاته ومشاعره حولها في كل رحلاته إليها ومنها ما سماه : رحلتي إلى المغرب، رحلتي إلى الجزيرة العربية . وقد اقتصرنا على رحلة واحد كأتمودج، وهي الرحلة المغربية . ويقول سعد الله عن رحلته هذه: "قلما اتجه الرحالة الجزائريون في القديم إلى المغرب أو الأندلس . كان اتجاههم مثل اتجاه المغاربة أنفسهم، نحو المشرق ... والرحالة الجزائريون قليلون إذا قيسوا بالرحالة المغاربة، وأقل من القليل أولئك الذين اتجهوا منهم نحو المغرب بدل المشرق ... وتعقبا لآثار هؤلاء وأضرابهم ذهبت إلى المغرب خلال الصيف الماضي . وقد سجلت أثناء رحلتي كعادتي في كل بلد أزوره، يوميات صببت فيها مشاعري ومشاهداتي وقراءاتي ولقاءاتي، صبا عفويا لا تنسيق فيه ولا تفنن . وعند عودتي إلى الجزائر نظرت في هذه اليوميات فوجدت فيها ما يصلح للنشر الآن وما لا يصلح للنشر إلا بعد انقضاء جيل . ولتشابك هذين القسمين في اليومية الواحدة فضلت ان أنسج هذا العرض لأخبار الرحلة نسجا آخر لا يتقيد باليومية ولكن بالحادثة نفسها، مقتصرنا فيه على الأحداث والمناسبات الثقافية المتصلة بها".

كانت أحداث هذه الرحلة في صيف سنة 1973، ومن الأحداث التاريخية التي تفيدنا بها نذكر الإشارة إلى جامع السنة بالرباط الذي وصفه سعد الله بأنه : "جامع ضخم وحديث مبني على ال طراز الأندلسي -المغربي. وقد وجدت مكتوبا عليه أن الذي بناه هو مولاي محمد بن عبد الله سنة 1785 م، وأن الذي جدده هو الملك الحسن الثاني سنة 1969".

ويشيد أبو القاسم سعد الله بالمغاربة حين قدّروا المدن والبلدان العربية والإسلامية وسموا عليها شوارع الرباط في قول: "وتتفرع منه (من الشارع الرئيسي) شوارع تحمل أسماء المدن العربية العتيقة والعواصم الحالية. مثل: القاهرة وعمان ودمشق وجدة والطائف والقدس وبيروت وحلب وحمص. وهو تقليد أجاد فيه المغاربة وهو بلا شك مظهر من مظاهر العراقة والمحافظة على التراث العربي والإسلامي". وللإشارة كثيرا ما دعا الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله السلطات الجزائرية في كتاباته إلى تغيير أسماء الشوارع والمواقع الرسمية التي تحمل أسماء غير جزائرية لا سيما الفرنسية أو المسيحية منها واستبدالها بأسماء تحمل الشخصية العربية الإسلامية والمسحة الجزائرية والامتداد الحضاري الإسلامي. وقد أشار سعد الله إلى أن شارع ألفريد دي موسيه على عهد الفرنسيين بالرباط، قد تحول إلى اسم شارع أبي نواس على عهد الاستقلال.

بل ويذكر أبو القاسم سعد الله ذلك بطريقة صريحة فقال سنة 1973: "لقد قطع المغرب أشواطاً في ميدان التعريب. وقد أشرت من قبل (في الرحلة) إلى تأصيل الحضارة العربية الإسلامية بتثبيتها في الشوارع التي أطلقت عليها أسماء مدن شهيرة... ويلاحظ المرء وفرة الكتب العربية القديمة والحديثة، اليمينية واليسارية... والتعريب الإداري يخطو كذلك أشواطاً كبيرة. فالمغربي يحمل بطاقة تعريف وجواز سفر معرّب أو مزدوج اللغة، ويستطيع أن يكتب الحوالة، ويعنون الرسالة، ويسجل البريد، ويترافع في المحاكم بالعربية، وليس هناك عقد ولا حساسيات كتلك التي تركها الاستعمار في بعض البلدان الأخرى. والناس يتكلمون في الشوارع والدكاكين، وفي الحفلات ودور السينما بالعربية، وقلماً تسمع لغة أجنبية. لكن بعض العامة يستعملون أحياناً المحلية. وصمام الأمان لهذا الاتجاه نحو التعريب يكمن في غيرة المثقفين على لغة وطنهم وتحركهم عندما تقتضي الضرورة صفاً واحداً كتلك الحركة التي نتج عنها البيان المشار إليه. وتساند هذا التيار تقاليد حضارية عريقة، وعائلات أثيلة كانت وما تزال تلعب دوراً بارزاً في خدمة الثقافة العربية الإسلامية، ونخبة متوثبة تلقت ثقافتها في المغرب أو في المشرق وتقف إلى جانب التعريب كمطلب وطني. وقد سمعت وأنا في المغرب أن كلية الآداب ستعرب تماماً ابتداءً من هذا العام (1973) - (1974)".

ومن قضايا التعريب التي تناولها أبو القاسم سعد الله في كتاباته أيضا الموقف الذي تعرض له بمطار جدة بالسعودية يوم 05 ماي 1977 فقال: " وأثناء مروري بشرطة الجوازات بحث الشرطي عن الحرف العربي في جواز سفري فلم يجده، فرفع بصره إليّ بأدب جم : يا أخي متى تعرّبون جوازات سفركم؟ ألم تخرج فرنسا من عندكم؟ وقد حزّ كلامه في نفسي، وكدت لا أجد ما أقوله له لأنني كنت شخصا مقتنعا بكلامه".

ومن القضايا الهامة التي أشار إليها سعد الله بعض الأعمال التي أهداه إياها مؤلفها رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة بلرباط الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني ويهمننا منها ما له علاقة وطيدة بتاريخ الجزائر والوحدة المغاربية إذا كان من بينها: "بيان تاريخي من مثقفي المغرب حول سياسة التعليم والغزو اللغوي الاستعماري للمغرب العربي، موقع من 500 شخصية مغربية، الرباط سنة 1970، 45 صفحة" وكذلك دراسة للكتاني "بمناسبة مرور عشرين سنة على تأسيس جمعية العلماء، دراسة في 8 صفحات على الآلة الراقنة نشرها في جريدة (العلم) المغربية سنة 1951، تحدث فيها بالخصوص عن صلته بالشيخ الإبراهيمي. وقد جاء فيها أن للمرحوم الإبراهيمي كتبا مخطوطة منها : "كتاب كبير" في المقارنة بين تاريخ العلم بالمشرق وتاريخه بالمغرب، وآخر مطول عن الشيخ باديس، كان الإبراهيمي قد كتبه في منفاه بأفلقو". وكذلك عمل للكتاني عن: "واجب الأمة نحو تاريخها وأبطالها، نبذة في أربع صفحات على الآلة الراقنة عن حياة المرحوم الإبراهيمي وصلة المؤلف به... وقد أطلعني الأستاذ الكتاني أيضا على نسخة من رسالة كان المرحوم الإبراهيمي قد أرسلها إليه سنة 1936، يطلب فيها منه إرسال بعض الكتب والمجلات، ويخبره فيها أيضا أنه (الإبراهيمي) بصدد تحقيق كتاب (الكتيبة الكامنة) لابن الخطيب. كما أطلعني الأستاذ الكتاني على مشروع دراسة له عن الشيخ ابن باديس... " وكان الشيخ الكتاني قد جاء إلى تلمسان (يذكر في مكان آخر من الفقرة أن زيارة الكتاني كانت أولا إلى مدينة الجزائر سنة 1935 بمدينة الجزائر) لحضور المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين باعتباره وكيلا للطلبة الأفارقة بفاس... ". وبعد الحديث مع الكتاني يذكر سعد الله أن الكتاني "كان كثير الاطلاع على حركة حزب الشعب والحركة الإصلاحية في الجزائر ورجالها، وعلى العلاقة بينها وبين رجال الإصلاح والسياسة في المغرب، وكان له شخصا دور في ربط هذه العلاقة حيث كان يتردد على تلمسان ويعود بالآراء التي

تمثل وجهة نظر الجزائريين في القضايا المشتركة. وقد ذكر لي أسراراً عن خطط الشيخ باديس لو طال به الأجل، وعن الشيخ الإبراهيمي مما جعلني أتأكد من أن كثيراً من الجزائريين يجهلونهما . وليت الأستاذ الكتاني يكتب مذكراته عن فترة الثلاثينات والأربعينات حتى يستفيد منها الجيل الصاعد وحتى لا تضيع كثير من الحقائق في صدور الرجال".

ومن المعلومات الثقافية المهمة التي يحتاج إليها الباحث أيضاً أن هذه الرحلة عرفتنا ببعض الشخصيات الثقافية منها مثلاً : الأستاذ عباس الجراري وهو باحث مغربي متخصص في الأدب عموماً والأدب الشعبي المغربي على وجه الخصوص . تعارف الرجلان (سعد الله والجراري) أثناء انعقاد مؤتمر الكتاب العرب بدمشق سنة 1971، وتوطدت معرفتهما ببعضهما في السنة الموالية حين جاء الجراري محاضراً بقسم اللغة والثقافة العربية بكلية الآداب بجامعة الجزائر. وقد توصلت الروابط إلى تمادي المؤلفات التي يهمنها كتب الجراري التي أهداها إلى أبي القاسم سعد الله آنذاك والتي ذكرت منها الرحلة : الزجل في المغرب - القصيدة وهي أطروحة الدكتوراه التي أعدها الجراري في الآداب من مصر، وهي في 715 ص طبعة المغرب 1971، وكتاب: من وحي التراث طبعة المغرب أيضاً في 184 ص، وكذلك كتابه الثقافة في معركة التغيير، في 195 ص، طبعة المغرب، 1972، وموشحات مغربية، طبعة المغرب سنة 1973 لم يذكر صاحب الرحلة عدد صفحاتها. كما تذكر الرحلة أيضاً أن الجراري أصبح في رتبة "أستاذ كرسي الأدب المغربي في آداب جامعة محمد الخامس مع عناية خاصة بالأدب الشعبي على مستوى المغرب العربي... وكان قبل ذلك موظفاً بالخارجية. ويذكر أبو القاسم سعد الله أن عباس الجراري كان يقطن سنة 1973 بمنطقة آكدال التي تعني باللهجة المغربية المحلية (الغابة أو المكان كثير الشجر)، ويذكر عنه أن أصحابه كانوا من عائلة الصايغ، وأن زوجته كانت تشتغل محامية، وله ثلاثة أبناء محمد وألوف وعلا. أما أبوه فهو الشيخ الأستاذ عبد الله الجراري ذو حوالي الستين عاماً (سنة 1973)، حيوي، نشيط، دارس متخصص في التاريخ الإسلامي له مكتبة غنية كمكتبة ولده، تجمع بين المخطوط والمطبوع القديم والحديث متنوع يشتمل على كثير من تاريخ المغرب العربي، كما له مذكرات كان قد وصل في كتابتها إلى سنة 1950 زمن الرحلة. ومما تذكر الرحلة أن للشيخ عبد الله الجراري ثلاثة أبناء على الأقل هم : عباس الأديب، وعبد الواحد القاضي، وثالث طيب لم تذكر الرحلة اسمه".

ومن القضايا التاريخية التي أفادتنا بما رحلة أبي القاسم سعد الله إلى السعودية أنه أخبرنا بأن مساجد كثيرة أقيمت على أماكن بيوت الصحابة . فقال: "وشاهدنا هنا أيضا (بالمدينة المنور) عدة مساجد بنيت على ما يقال، على أنقاض بيوت الصحابة والخلفاء كالإمام علي وسيدنا عمر وسيدنا أبي بكر، وشاهدنا كيف وسع الحرم النبوي وكيف سيوسّع في المستقبل حيث أضيفت له ناحية كاملة مازالت معدة اعدادا مؤقتا. ويجري الآن هدم أحياء قديمة كاملة حول الحرم وتعويض أهلها، لتوسيع الحرم توسيعا كبيرا".

خاتمة:

حاولنا من خلال هذا المقال القاء الضوء على إشارات من اهتمام أبي القاسم سعد الله بالتاريخ العربي، ولا يعدو أن تكون هذه الأحداث والصدى الذي أحدثته في نفسية سعد الله مجرد نماذج لما عاشه من أحداث عميقة ساهمت في صناعة العقل العربي والسياسة العربية في المنطقة. بل وصنعت الواقع العربي الذي نعيشه اليوم. وبفعل ذلك كان لتلك الأحداث صدى كبيرا حاولنا أن نتطرق إلى بعضه في هذه الورقة. هذا إضافة إلى المعارف التي أضافها سعد الله إلى الباحثين لا سيما المهتمين منهم بالتاريخ العربي، وكذلك إلى مختلف المصادر والمراجع والمؤلفين الذي دل عليهم الباحثين.

للموضوع مصادر ومراجع مفصلة في النص الأصلي للمداخلة.

مداخلة قدمت إلى الملتقى الدولي الهام "أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا" ، قسم العلوم الإنسانية بجامعة الشهيد حمة لخضر بوادي سوف ، يومي 13 و 14 ديسمبر 2015، في الذكرى الثانية لوفاته رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته.